

ملحق قصصي للمقال

مقعدان قرب النافذة

حكاية عن الحب الذي يتجدد بالاكشاف



فضول يعيد القرب

مساحة للنمو

ألفة بلا انتباه

”بيدو أنّ عليّ أن أتعرف إليك من جديد“

بعد سبعة وعشرين عاماً من الزواج، كان يوسف يعرف أشياء كثيرة عن مريم: أنها تترك آخر رشفة في فنجان القهوة، وأنها تغلق النوافذ قبل الغروب، وأنها حين تنزعج تنشغل بترتيب أشياء لا تحتاج إلى ترتيب.

وكانت مريم تعرف عنه مثل ذلك، وربما أكثر.

ومع هذا، صار الحديث بينهما ينتهي سريعاً.

«هل اتصلت ابنتنا؟»

«نعم.»

«دفعَتِ فاتورة الماء؟»

«وضعتها قرب هاتفك.»

لم يكونا يتخاصمان. كان يوسف يشتري دواءها قبل أن ينفذ، وكانت تضع نظارته في مكانها كل مساء. لكنهما، منذ غادر أصغر أبنائهما البيت، صارا يجلسان طويلاً في غرفة واحدة، وكل منهما بعيد عن الآخر.

وذات مساء، وجد يوسف فوق الطاولة استمارة للتسجيل في ورشة رسم.

سألها:

— لمن هذه؟

— لي.

رفع عينيه إليها:

— أنت؟ منذ متى تحبين الرسم؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة.

— منذ زمن، يا يوسف.

— لم أركِ ترسمين يوماً.

— كنت أرسم قبل زواجنا. ثم صار هناك دائماً شيء يجب أن أفعله أولاً.

أعاد الاستمارة إلى الطاولة.

— وما حاجتك إلى هذا الآن؟ أخيراً ارتحنا من المشاغل.

لم تجبه. طوت الورقة ووضعتها في درجها.

في تلك الليلة، سألها إن كانت غاضبة.

قالت وهي تطفئ مصباحها:

— لا أعرف... لكنك تتحدث أحياناً كأنني انتهيت.

لم يجد جواباً.



بدأت مريم تذهب إلى الورشة مساء الخميس.

وكان يوسف ينتظر عودتها، ثم يسأل السؤال نفسه:

— كيف كان الدرس؟

— جيداً.

فيقول:

— الحمد لله.

ويعود إلى التلفاز.

أما هي، فكانت تحمل في حقيبتها أشياء كثيرة لم يسأل عنها: خوفها من أول ورقة بيضاء، وفرحتها حين استطاعت مزج لونين، وضحكتها عندما رسمت يداً بستة أصابع.

بعد أسابيع، دعتَه إلى معرض صغير لأعمال المتدربين.

وافق، لكنه تأخر بسبب إصلاح سيارته. وحين وصل، كانت مريم واقفة أمام لوحة، تتحدث بحماس إلى امرأة أخرى.

توقف قليلاً قبل أن يقترب.

لم يرها تتحدث بهذه الحيوية منذ سنوات.

في طريق العودة، قال:

— بدوتِ سعيدة هناك.

أجابت:

— كنت سعيدة.

ثم سأل:

— أي لوحة كانت لك؟ لم أستطع تمييزها.

نظرت إليه لحظة.

— المقعدان قرب النافذة.

تذكر اللوحة: مقعدان متجاوران، بينهما طاولة صغيرة. أحدهما مواجه للنافذة، والآخر ملتفت إلى جدار.

قال:

— ظننت أنك ترسمين غرفة.

— رسمت غرفتنا.

وساد صمت طويل.



في صباح اليوم التالي، وجدها تحضر القهوة.

جلس إلى الطاولة وقال، بصوت متردد:

— أظن أنني خفت.

التفتت إليه.

— من الرسم؟

— من أن تجدي حياة لا مكان لي فيها.

وضعت الفنجان أمامه، وجلست.

كان اعترافه آخر ما توقعت سماعه.

تابع:

— منذ تقاعدت، لا أعرف ماذا أفعل بنهاري. ثم رأيته تخرجين وتتعلمين وتعودين وفي رأسك

أشياء جديدة... شعرت أنني واقف وأنت تمضين.

قالت بهدوء:

— وأنا شعرت أنك تريدني أن أبقى واقفة حتى لا أقلقك.

خفض عينيه.

وللمرة الأولى منذ وقت طويل، لم تتحدث إليه عن المشتريات أو الأولاد.

سألته:

— كيف تقضي وقتك حين أكون في الورشة؟

— أخرج قليلاً. ثم أعود. أحياناً أنتظر موعد رجوعك.

مدّت يدها إلى يده.

— لماذا لم تخبرني؟

ابتسم بحزن:

— كنت أظن أنك تعرفين.

نظرت إلى فنجانها، ثم قالت:

— وأنا كنت أظن أنك تعرف أنني ما زلت أريد أن أتعلم.



لم يتغير كل شيء في ذلك الصباح.

ظل يوسف ينسى أحياناً أن يسأل، وظلت مريم تحمل عتبها بصمت بعض الأيام. لكنهما بدأ يتوقفان

قبل أن يقولوا: «أنا أعرفك».

وفي الخميس التالي، سألها:

— ماذا ترسمون اليوم؟

— الظلال.

— وهل للظل ألوان؟

ضحكت.

— هذا ما كنت أظنه أيضًا. تعال، سأريك.

جلست قربه وفتحت دفترها. أصغى إليها وهي تشير إلى لون أزرق خفيف تحت شجرة، وإلى بنفسجي في جانب وجه.

قال:

— لم أكن أعرف أنك تنتبهين إلى كل هذا.

أجابته:

— وأنا بدأت أنتبه إليه الآن.

وبعد أيام، أخرج يوسف صندوقًا قديمًا من الخزانة. فيه ساعة مفككة وأدوات صغيرة.

قال إنه كان يحب إصلاح الساعات، لكنه ترك ذلك حين ازدحمت حياته بالعمل.

لم تقل مريم: «في هذا العمر؟»

سألته:

— هل تستطيع إصلاحها؟

— لا أدري. سأحاول.



صارا يتركان مساء السبت لهما. أحياناً يتمشيان، وأحياناً يختاران وصفاً لم يجرباها، وأحياناً يجلسان قرب النافذة، تتحدث هي عن لوحة لم تنجح، ويتحدث هو عن قطعة صغيرة عجز عن إعادتها إلى مكانها.

لم يعودا شابين، ولم تعد حياتهما مليئة بالمفاجآت الكبيرة.

لكن يوسف اكتشف أن مريم لم تعد تحب السكر في قهوتها.

قال بدهشة:

— منذ متى؟

— منذ عام تقريباً.

ضحك، ثم نظر إليها نظرة جعلتها تبتسم قبل أن يتكلم.

— يبدو أن عليّ أن أتعرف إليك من جديد.



وفي معرضها التالي، وصل يوسف مبكراً.

كانت لوحتها الجديدة تحمل الاسم نفسه: «مقعدان قرب النافذة».

هذه المرة، كان المقعدان ملتفتين قليلاً أحدهما نحو الآخر.

وقف أمامها طويلاً، ثم قال:

— هكذا أفضل.

أجابته:

— وأنا أيضاً.

وعندما عادا إلى البيت، وضع فنجانها أمامها، بلا سكر.

ثم جلس قريبا، وسأل:

— أخبريني... ماذا تريدان أن ترسمي بعد ذلك؟

قصة مستوحاة من مقال «الحب في منتصف العمر: تحولات المعنى وإعادة اكتشاف الآخر» للأستاذة هدى بركات.